معركة الإسلام والرأسمالية

سيد قطب

الناشر
دار الأخوان للصحافة والطباعة

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Dem. No: 60452
Tas. No: 330.297
SEY.M

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م

الطبعة الثانية { رجب ١٣٧١
إبريل ١٩٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا »
« مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ »
« فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا »

(قرآن كريم)

صيحة النذير

هذا الوضع الاجتماعى السيىء الذى تعانيه الجماهير فى مصر . . غير قابل للبقاء والاستمرار . . هذه حقيقة يجب أن تكون معروفة من الجميع ، كى يمكن السير بعد ذلك على هداها فى الطريق الصحيح .

نعم ! غير قابل للبقاء والاستمرار ، ذلك أنه مخالف لطبائع الأشياء ، لايحمل عنصراً واحداً من عناصر البقاء ، يملى له فى الأجل ، ويهيىء له فرصة البقاء .

إنه مخالف لروح الحضارة الإنسانية بكل معنى من معانيها ، مخالف لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته ، مخالف لروح العصر بكل مقتضى من مقتضياته . ذلك فوق مخالفته لأبسط المبادئ الاقتصادية السليمة . ومن ثم فهو معطل للنمو الاقتصادى ذاته ، بله النمو الاجتماعى والإنسانى .

وكل وضع اجتماعى يكون من نتائجه شل قوى الأمة عن العمل والإنتاج ، فتعويقها بهذا عن النموّ والتقدم . . هو وضع شاذ ، لايفقد فقط حقه فى البقاء ، بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء . فكيف إذا اجتمع إلى هذه الآفة ، أنه يهدر الكرامة الإنسانية ، ويفسد الخلق والضمير ، ويقضى على كل معانى العدالة ، ويقتل الثقة الضرورية

فى المجتمع والدولة ، وينشر القلق ، ويذهب بالاطمئنان ؟

إن الذين يتشبثون اليوم بهذا الوضع الشاذ ، ويحاولون أن يقيموا له الأسناد ؛ سواء كانوا من المستغلين ، الذين يعز عليهم أن يساهموا فى التكاليف والأعباء الضرورية لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ؛ أو من الطغاة الذين يصعب على نفوسهم أن تجرى العدالة مجراها ، فتحرمهم أسباب السلطان الزائف الذى لايقوم على أساس ؛ أو من المستمتعين الذين مردوا على المتاع الفاجر ، فهم لايطيقون القصد فيه والاعتدال ؛ أو من رجال الدين المحترفين ، الذين باعوا أنفسهم لا لله ولا للوطن ، ولـكن للشيطان ، ولمن ينقدهم فيها ثمناً بخساً دراهم معدودات . . . إن هؤلاء جميعاً إنما يحاولون مالا قِبَلَ لهم به ، لأنهم يحاولون ضد طبائع الأشياء ! إنهم إنما يُلقُونَ بأيديهم إلى التهلـكة لأنهم يضيعون كل فرص السلامة السانحة المتاحة . وياليتهم يذهبون وحدهم حين يذهبون ؛ ولـكنهم سيذهبون ومعهم هذه الأوطان المنكوبة ، ما لم تأخذ هذه الأوطان على أيديهم وفى الوقت متسع ، قبل أن يحق عليها النذير الصادق الحاسم : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ، أَمَرْنا مُتْرَفِيهَا ، فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيرا » .

إن الحقائق الواقعة لاتعالج ، كما نعالجها نحن اليوم ، بالخطب الوعظية ، أو الفتاوى المحتالة ؛ كذلك لاتعالج بتكميم الأفواه ، وتحطيم

الأقلام . . إنما تعالج بحقائق واقعة تقابلها وتغيرها . والمَعِدات الجائعة لاتفهم المنطق — حتى ولو كان منطقاً صحيحاً لااحتيال فيه ولا التواء — وعلينا أن ندرك هذا قبل فوات الأوان . ولقد أوشك والله أن يفوت الأوان !

فليقل من شاء كيف شاء : من الطغاة المستغلين ، ومن رجال الدين المحترفين ، ومن الـكُتّاب المرتزقين ، والصحفيين المأجورين : إن الدعاة إلى إصلاح هـذا الواقع الاجتماعى السيىء ، شيوعيون ، أو خارجون عن القانون ، أو خطرون على الأمن والنظام ، أو دُعاة هدم وفوضى ؛ وليحاربوهم بكل الوسائل الجهنمية ، التى يملـكها الطغاة فى كل زمان ومكان ، ليزجُّوا بهم فى المعتقلات والسجون ، وليعطلوا لهم الصحف والأقلام ، وليحاربوهم فى أرزاقهم وأقواتهم ، وليسدلوا الستار على حياتهم وذكراهم .

إن صوتاً سيرتفع بعد ذلك كله ، ولن يمكن إسكاته أبداً : صوت المعِدات الخاوية ، التى تملأ جنبات هذا الوادى . صوت الملايين التى تبذل العرق والدماء ، ولا تنال مقابلها لقمة الخبز جافة ، ولا خرقة الـكساء متواضعة . صوت الجموع التى لم تقرأ فى حياتها كلمة واحدة عن الشيوعية أو غير الشيوعية ؛ ولـكنها جموع من الأحياء ، تطالبهم معداتهم بلقمة الخبز ، وتطالبهم جلودهم بخرقة الـكساء .

سيبقى صوت واحد لايخفت — ولو خفتت جميع الأصوات — صوت الواقع الذى ينطق بلسان الملايين من تلك القطع الآدمية المحطمة

الزرية ، التى مسختها تلك الأوضاع الاجتماعية الظالمة ، فحرمتها حتى حاسة الإحساس بالظلم ، وحتى شعور الإنسان بالحرمان .

نعم ! وصوت مئات الألوف من الحطام الآدمى المتناثر فى الطرقات ، اللاصق بالجدران ، الباحث عن الفتات فى صناديق القمامة مع القطط الضالة والكلاب . ذلك الحطام المشوّه الخِلْقَة ، المقرح الجِلد ، المسمول الأعين ، الشارد المتلصص ، أو الذليل المتسوّل . . هنا وهناك فى كل مكان .

ذلك بينما الترف الفاجر الداعر يعربد فى المواخير والقصور ؛ والذهب المتجمد من دماء الملايين ، يبعثر على الموائد الخضر وفى حجور الغوانى ؛ والأرباح الفاحشة تعجز أربابها عن العد والإحصاء بَلْه الإنفاق والاستهلاك !

من ذا الذى يستطيع أن يقول : إن وضعاً اجتماعياً تلك ثماره المتعفنة الخبيثة يمكن أن يدوم ، مهما أقيمت له الأسناد المنتحلة من فتاوى لمحترفين ، أو مقالات المرتزقة المأجورين ، أو عسف الطغاة والمستغلين ؟

إنه عبث . عبث ضائع . عبث ضد طبائع الأشياء .

إنى أتهم

. . أتهم هذه الأوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الأمة عن العمل والإنتاج ؛ وتُشيع فيها البطالة والتعطل ؛ وتقعدها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية ؛ وتؤدى بها إلى الضعف عن مواجهة الأخطار الداخلية والأخطار الخارجية ، التى تتزايد وتبرز على مر الأيام .

إن أرضنا تملك أن تنتج أضعاف ماتنتج من غلات . ولكن لماذا لايتم هذا ؟ لأن هذه الأرض لا تزال موزعة كما كانت موزعة فى أظلم عهود الإقطاع ، فهى محتكرة فى أيد قليلة لا تستغلها استغلالا كاملا ، ولا تدعها للقادرين على استغلالها ممن لا يملكون شيئاً . . دع هذه الأرض تخرج من هذا الاحتكار ؛ وتتداولها الأيدى المتعطلة التى لا تجد ما تعمل . . حينئذ تتبدل الحال غير الحال .

وإن الأرض الصالحة للزراعة ليمكن أن تتضاعف . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لأن مشروعات الرى والصرف الكبرى معطلة لا تنفذ ! لماذا ؟ لأنها تحتاج إلى المال ، والمال فى أيدى الرأسماليين ؛ والدولة تشفق أن تحمل رؤوس الأموال نصيبها الواجب من الأعباء . لماذا ؟ لأن الدولة لا تمثل الجماهير المحتاجة ، إنما تمثل رؤوس الأموال . . دع مقاليد الحكم للشعب حقاً . حينئذ سيجد الشعب فى خزائنه من حصيلة